نظر في الشعر

رسالة الى احد التلامذة

ايها العزيز

سألتني رعاك الله حلّ عقدة عرقلت دروسك البيانية او كادت . قلت : ورد في مجاني الادب (ج ٣ — ص ١٦٧) انّ اعرابيًا امتدح داود بن المهلب فقال لهُ داود « قد حكّمناك فان شئتَ على قدرك وان شئت على قدري فقال : على قدري فاعطاه خمسين الفًا فقال لهُ جلساؤه : هلّا احتكمت على قدر الممدوح . قال : لم يكُ في ماله ما يفي في قدره . قال لهُ داود : انت في هذه الشعر منك في شعرك » اه قلت : وكيف يكون المتكلم في النثر شاعرًا والشعر هو الكلام المنظوم والنثر غير منظوم؟ أفيمكن اطلاق لفظة الشعر على غير المنظوم وان امكن فما وجه جواز ذلك ؟

دعني اولًا ايها العزيز اثنِ عليك لاني اراك راغبًا في طلب العلم ولا رغبة البخيل في تحصيل الاصفر الرنّان ولا يكفيك من العلم ظاهره شأن السواد الاعظم من الطلّاب فانهم لا يمارون في دروسهم سوى الذاكرة فاذا حملوها الاثقال عدّوا انفسهم غانمين . نامت بهم اغصان عليها اثمار الفنون ولكنهم لم ينتفعوا منها لانهم لم ياكلوها فيغتذوا بها ثم تركوها في خزائن ذاكرتهم فما لبثت ان جفّت وفسدت فاصبحوا خاسرين . لان الغاية من الدرس ليست كثرة الحفظ لئلّا هي اعمال الذهن لانّ تهذيب العقل موقوف عليه ولأن تدرك حقيقة واحدة وتمعن النظر فيها خير لك من ان تطلع على حقائق عديدة لا تبلغ منها سوى قشرتها . فبكل طيبة خاطر اجيب على سؤالك عساني اشفي غليلك

ولا بدَّ ان انبهك انّ امثال ما ذكرت كثيرة فيقال ايضًا : هذا البيت اشعر من هذا . وهذا اشعر بيت قالتهُ العرب وفي اللغات الاجنبية ينسبون الى الشعر (poésie) ليس النثر فقط بل العواطف والاعمال والمشاهد الطبيعية فيقولون مثلًا : وصف شعري وان كان نثرًا ومنظر شعري (spectacle poétique، description poétique) الخ فالصعوبة في كل هذه الامثال واحدة وهي التي تعمدنا حلّها . واما السبيل الى ذلك فهو تعريف حقيقة الشعر فاذا كشفنا عنها النقاب اهتدينا الى ضالتنا

قد علمت من اصول الخطابة ان الشيء يعرَّف بجنسه وفصله القريبين فما هو ياترى الجنس الذي ينتمي اليه الشعر ؟ قد اتفق الجميع على انَّ الشعر من جنس الفصاحة والتصوير والموسيقى والنحت والبناء. وقد اطلقوا عليها اسمًا واحدًا فدعوها بالفنون الجميلة ولا مشاحة في ذلك بينهم. ففي هذا الاجماع دليل واضح على ما اسميه جنسية الشعر فلولا انَّ قولهم مطابق للحقيقة لما تسنَّى لهم ان يتفقوا عليه مع ما نعهده عندهم من تفاوت العقول وتباين المذاهب والطرائق واختلاف الاخلاق والاغراض وتباعد الاجيال فيمكننا اذًا ان نركن الى رأيهم ونتخذه اساسًا متينًا لبحثنا وعليه نقول: انَّ الشعر من الفنون الجميلة. واما وجه تسمية تلك الفنون بالجميلة فهو انَّ الغرض منها ابراز الجمال او الحسن في قالب محسوس يأخذ بمجامع القلوب فالجمال هو موضوعها وغايتها الاولى كما انَّ الحقيقة موضوع الفلسفة والخير والصلاح موضوع الادب. ولمَّا كان الحسن بذاته غير محسوس لما هو كشعاع من الجمال النير المخلوق المنزَّه عن صفات الاجسام والمتعالي فوق كل حس وادراك تحتَّم عليه ان يتجسد اي ان يتخذ له من الاجسام صورة حسيَّة يتحد بها كاتحاد الروح بالجسد حتى ينالنا شيء من ضيائه. وما مثلهُ في ذلك الَّا مثل النور الداخل من نافذة حجرتك فلولا الذرات الماديَّة التي يجتازها وهو نازل عليك لما ميَّزت لمعتهُ

واما الطرق لاخراج الجمال الى عالمنا الحسي فهي كثيرة ولكنها معدودة وهي الالوان او الاصوات المتلائمة او الحجارة وما شابهها او الخطوط الناتئة او الخطوات المحكمة الايقاع او الاقوال البشريَّة موزونة كانت او غير موزونة. وقد ادَّى اتخاذ هذه الطرق المختلفة الى وضع فنون مختلفة وهي فنّ التصوير وفنّ الموسيقى وفنّ البناء وفنّ النحت وفنّ الرقص وفنّ الادب شعرًا ونثرًا. فترى ممَّا سبق كيف تشترك الفنون الجميلة وكيف تتميز عن بعضها ولا سيَّما الادب الذي هو غايتنا في هذا البحث. ثم كيف ينقسم الادب الى فرعين منظوم او موزون وهو الشعر وغير منظوم وهو النثر البليغ. فالوزن اذًا هو الفاصل الجوهري بينهما. واما ما سواه من الفروق فهو عرضي وعليه يجوز لنا ان نحدد الشعر بانهُ قول محكم الايقاع يعبر بصورة جليَّة عن الجمال الغير المحسوس

ولعلك تسألني: وما هو الحسن الذي تتكلم عنهُ ؟ او ما يكون الشاعر او المصور الخ « صانعًا » جيدًا (artiste) ان لم يبرزه في صنعته ؟ اجيب اولًا على سؤالك الثاني:

كلًا لا يجيد وليس « صانعاً » من لم يعبر عن الحسن في صنعته كما انهُ لا يستحق اسم الحكيم من لا حكمة في اقواله ولا اسم القديس من لا خير ولا صلاح في اعماله. ومن هنا يبين لك انَّ كثيرين يدَّعون الصناعة وهم ليسوا منها بشيء. واماَّ الحسن فمن يعرفنا حقيقتهُ ؟ هو من المعقولات التي قال عنها القديس اغوسطينوس: اذا ذكرتها فهم الكل مرادك واذا سألت عن ماهيتها لم يجبك احد

جميل منظر الشمس عند بزوغها ساعةً تبدو على قمم لبنان فتبدد شمل الظلام ترسل من ابواب فجرها ذهباً ورديًا على المعمورة كلها فينتعش كل حي ويهش لها. ترتعش الاغصان وتتبسم الازهار وتترنم الاطيار فعلى العبيد زارتهم ملكة كريمة

جميل منظر السماء مزينةً بمصابيح الليل تتلألأ بين سدول الدجى وتنزل على البشر من المساكن العلويَّة راحة وسلاماً

جميل منظر البحر اذا هاج وماج او مدَّ بساطهُ اللازوردي في ليل مقمر فتناثرت من طيَّاتهِ درر ولآلئ — وجميل صوتهُ اذا غضب وهو اجمل اذا سكن وطاب نفساً فغنَّى للباري انشودتهُ وهو يطأطئ بياض هامتهِ اجلالاً لمولاه

جميل منظر الطفل الرضيع نائماً في سريره وهو يتبسم بين الاحلام للملائكة الله والمهُ تتأملهُ بوجه يضيء فرحاً وهي قابضة انفاسها لئلا تكدر صفاء رقاده

جميلة شجاعة الفارس يخوض غمرات الموت في الحرب ولا يبالي بما يصوبهُ عليهِ من حداد اسهمهِ. واجمل منها شهامة الابطال اذا ماتوا حبًّا بالوطن

جميل تفاني القارب في سبيل الاله والقريب. تفاني الذين تركوا الاوطان. وهجروا الخلان وودعوا القصور وربوع الهناء واختاروا ديار الشقاء من البلاد البعيدة مقرًّا لهم طول العمر واقطعوا لخدمة اذلّ الناس واسفلهم فضحوا حياتهم حتى ينتشلوهم من وهدة الهلاك وعار الهمجيةُ ويهدوهم الى السماء

واي حاجة الى الاطالة ؟ انَّ الله رسم في كل الخلائق صورة جمالهِ الغير المتناهي فهي تتلألأ بهاء وينطق لسان حالها بجمال الباري كما قيل : « انَّ السماوات تشيع مجد الله » فعلى الشاعر وعلى « الصانع » ان يفتح عينيهِ ويقرأ ما كتبهُ الله على صفحات الكائنات وما افصح هذا الكتاب وما اوسع . فانَّ الاعمار ستفانى على كرّ الاجيال

قبل ان يتسنّى للبشر تصفح اوجه قلائل . ولكن سبحان من ذخر لنا الابدية اطالعتها والشاهدة المثال البديع الذي حاولت رسمهُ

هذا هو الجمال واما تعريفهُ فذاك بحر طام غرق فيه السواد الاعظم من الفلاسفة والكتّاب ولا عجب لانّ الحسن من البديهيّات كالحق والخير فيتعذّر حده حدًّا منطقيًّا لأني اذكر اصوب ما اتى في هذا المعنى . قيل : الحسن ضياء الحق بل ضياء الحق والخير وقيل هو ضياء النظام وضياء القدرة والقوة . وقيل غير ذلك . وليس لارباب الفنون حاجة الى معرفة ماهيّة الحسن حتى يدركوه ويتناوه والّا لما وجد « صنّاع » اذ هم غالبًا اقل الناس معرفة بالمنطق . فانّ نفس كل انسان ان لم تغلب عليها الهمجية او الغلاظة ترتاح طبعًا لكل جميل اخاء عليها نوره لانّ الله غرز فيها قوّة فطريّة لادراك الجمال كما اعطاها قوة لادراك الحق والصلاح . وقد يختلف مقدارها في الناس فمن بلغ منها جانبًا عظيمًا فهو « الصانع » الذي قدره الله على العمل فلمثل هذا تنفتح ابواب الفنون الجميلة واما سواه فلا يتعاطاها

هذا في الجمال الطبيعي فاذا ابرزه الصانع بصورة محسوسة تمثلهُ لاعين الناظر العارف حتى انهُ يشعر بمشاهدته بهزة الطرب التي تأخذه عند رؤية الجمال الطبيعي فذلك يكون الجمال الصناعي الذي ينسب الى صنعة المصوّر او الشاعر او المغني الخ اذا اجادوا

واما الدليل الحسي على وجود الحسن الطبيعي او الصناعي فهو عند اصحاب الذوق الشعور بتلك العاطفة اللطيفة واللذيذة التي ذكرناها آنفًا وقد وصفها الحققون وصفًا دقيقًا ليس في وسعنا ان ندخل فيه وسمّوها في اصطلاحهم « الانفعال الشعري » (l'émotion esthétique) فالانفعال الشعري اذًا هو فعل الحسن في نفس من خوله الله ذوقًا سليمًا وبواسطته يُدرك الحسن نبهًا وبميزانه يقدر وعليه ان لم تحرك الصنعة في النفس المستعدّة هذه العاطفة الشريفة فتلك الصنعة ساقطة لا محالة

ومما ينبغي تنبيهك اليه هو انّ الفنون الجميلة متفاوتة المنزلة فليست كل القوالب سواء في ابراز الجمال الغير المحسوس فللانغام مثلًا تأثيرٌ لا تبلغهُ الخطوط والرسوم . واما السبق فهو باتفاق الكل للشعر فالشعر هو ملك الفنون الجميلة فكأنهُ قد اصبح الآلة المختصة بالحسن دون غيره والشاهد على ذلك هو انهُ يفعل في النفس مفاعيل كل الفنون معًا كما يتضح لك ذلك بالاختبار

قد طالت بنا كل هذه المقدّمات وكأني بك تقول لي : ابتِ انك قد سهوت عن المطلب . لم اسهُ ايها العزيز ولكني رأيت هذه التوطئة ضرورية للجواب على سؤالك جواباً شافياً فلنرجع الآن الى الجمل التي عرضناها في اول المقالة فنشرحها

١ً « هذا البيت اشعر من ذاك » . انَّ التفاوت المذكور في هذه الجملة ليس من قبيل الوزن لانَّ الوزن قد يكون واحداً مع انهُ يجوز ان يكون احد البيتين لشعر من الآخر . فالتفضيل اذاً من قبيل بلاغة الكلام المنظوم وعليهِ لا يمكن ان يكون تحرير معنى الجملة سوى هذا : انَّ هذا البيت في درجة من البلاغة اسمى من ذاك او « هذا البيت اكثر بياناً للحسن والجمال من ذاك » اذ الكلام لا يكون بليغاً الّا اذا عبَّر عن الحسن تعبيراً واضحاً جلياً . واما سبب استعمال صيغة التفضيل من شعَرَ فهو انَّ الشعر لمَّا كان مخصَّصاً بالتعبير عن الحسن دون غيره كما قلنا استعملت لفظتهُ للدلالة على الحسن الصناعي كأنها مرادفة للفظة الحسن وذلك من قبيل المجاز المرسل كما يسمى الشيء باسم آلتهِ مثلاً : « اذكرني بلسان صدق » اي بكلام صدق

٢ً وعلى هذه الطريقة يجوز تفسير الجملة المذكورة في سؤالك « انَّ نثرك اشعر من شعرك » . وصف النثر بالشعر لا تكون الشعر كلاماً منظوماً فمن هذه الجهة لا يمكن ان يكون النثر الغير الموزون انظم من الموزون المحكم الايقاع ولكن تكون الشعر هو الكلام البليغ بعينهِ او القول الحسن بالذات (لانهُ كما قلنا الآلة المخصوصة بالحسن) فكما انَّ النثر يوصف بالبلاغة ويكون آلة لابراز الجمال كذلك امكنهُ مجاراة الشعر في هذا الميدان بل احراز قصب السبق عليهِ . ويكون معنى الجملة « انَّ الحسن في نثرك أظهر منهُ في شعرك »

٣ً ولستادًا الى هذا التأويل يجوز لنا نسبة الشعر الى الوصف والرواية الخ فنقول : وصف شعري ورواية شعرية ونعني الوصف او الرواية التي لا يتعمد فيها الكاتب مطلق الاخبار ولكن اطراب القارئ باظهار ما في الاشياء او الحوادث من الحسن

٤ً واما ما ورد في اللغات الاجنبية من نسبة الشعر الى العواطف والمشاهد والافعال فوجه تعليله هو دائماً الذي ذكرناه ولذلك رأيت ان اترجم (l'émotion esthétique) بالانفعال الشعري او العاطفة الشعرية

٥ً ولا بدَّ ايضاً من استلفات نظرك الى امر آخر وهو انَّ الشعر لا يطلق حقيقةً

على المنظوم الذي ليس الغرض منهُ سوى مساعدة الذاكرة كالاراجيز العلمية بل توسعاً ومجازاً وذلك من باب تسمية الجزء باسم الكل لانَّ المنظوم وهو الوزن الايقاعي جزء من الشعر

ولعلك تقول اجل ايها الاب قد يكون كل ما ذكرتَ ولكني لا ارى فيهِ دليلاً على انَّ العرب استعملت لفظة الشعر بالمعاني التي ذكرتها

اجيب اولاً انَّ استعمال الشعر بمعنى الحسن ورد في كلام العرب لانهم لمَّا فسروا هذه الجملة " هذا البيت أشعر من ذاك " قالوا هذا البيت احسن من ذاك . وثانياً انَّ في اصل لفظة الشعر دليل آخر . قال ابن رشيق : « انَّ الشاعر يسمى شاعراً لانهُ يشعر بما لا يشعر بهِ غيره » وجاء في التاج . غلب الشعر على العلم كما غلب اسم النجم على الثريا اهـ . فما هو الذي يشعر بهِ الشاعر دون سائر الناس ! اليس هو الجمال الغير المحسوس ؟ فهو يفطن لهُ ويدركهُ حيث عامة البشر لا تراه . فان كان الشعر هو ادراك الحسن فالقول « الشاعر » هو حينئذٍ القول الذي يدرك بهِ الحسن كما انَّ الليل الساهر هو الليل الذي يسهر فيهِ ولا يُشعر القول بالحسن الَّا اذا كان حسناً كما لا يشعر الجسم بالحرارة الَّا اذا كان حاراً ولا الزجاج بالنور الذي فيهِ الَّا اذا صار نيراً فانظر كيف انتقلوا من معنى الشعر الى معنى الحسن

واما كون الشعر غير النظم فهذا واضح عندهم وانا اكتفي بايراد ما قال ابن سينا في هذا المعنى قال (في المقالة الخامسة من الفن الثاني عشر من الرياضيات من كتاب الشفاء الورقة ١٧١ من نسخة لندن) « الشعر كلام مخيّل مؤلف من اقوال ذوات ايقاعات متفقة متساوية متكررة على اوزان متشابهة حروف الخواتيم . فالكلام جنس اول للشعر وغيره مثل الخطابة والجدل وسائر ما يشبهها . وقولنا من الفاظ « مخيّلة » فصل بينهُ وبين الاقوال البرهانية التصديقية والتصويرية على ما عرفتهُ في صناعة اخرى . وقولنا « ذوات ايقاعات متفقة » ليكون فرقاً بينهُ وبين النثر . وقولنا « متكررة » ليكون فرقاً بين الصراع والبيت . وقولنا « متساوية » ليكون فرقاً بين المتقفى وغير المتقفى فلا يكاد يسمى عندنا بالشعر ما ليس بمتقفى »

وقد اتى ايضاً بهذا التعريف في الفن التاسع من الجملة الاولى من الكتاب ذاته وتوسع في شرح كلمة « مخيّل » قال : « والمخيّل هو الكلام الذي تذعن لهُ النفس فتنبسط

عن امور وتنقبض عن امور من غير روية وفكر واختيار وبالجملة تنفعل لهُ انفعالاً نفسيًّا. سواء كان القول مصدقاً بهِ او غير مصدق » اه فالكلام الخيّل ليس الّا الكلام المعبّر عن الجمال تعبيرًا جليًّا تنفعل لهُ النفس. فترى كيف ان تعريفنا للشعر مطابق كل المطابقة لتعريف ابن سينا . ويتضح لك ايضاً من هذين الحدين ان الكلام الخيل جزء من حدّ الشعر ولا يكفي ان يكون الكلام موزوناً مقفى مكرر المصاريع حتى يسمّى شعرًا فاذا اجتمعت فيهِ كل الاجزاء المذكورة سوى هذه كان الكلام منظوماً بحصر المعنى لا شعرًا

المعذرة ايها العزيز لطول جوابي فقد كان بوسعي ان اكتفي ببضعة اسطر ولكني رأيت ان ابسط الكلام في هذا الموضوع حتى ابيّن لك امورًا عديدة ربما لم تفطن لها اصلًا وقلّما تنبه اليها الكتب المدرسية وهي مع ذلك كالاوليّات التي ينبغي للاديب ان يجعلها نصب عينيه اذا الف فلو رسخ في عقول كثيرين ان الشعر او البلاغة غايتهما ابراز الجمال وانّ الجمال مبني على الحقيقة لما بذلوا جلّ مساعيهم في استنباط غرائب المعاني وحسبوا تعانيفهم مع ذلك معدن الفصاحة والبلاغة

وفي الختام اطلب من الله ان يزيد فيك ملكة البلاغة والشعر ويقوّيك على تخيل الحسن بأبدع صورة واتقن صنعة ذاك فنّ شريف جليل كان القديس غريغوريوس النزيزي يؤثره على باقي الصناعات بشرط ان يستوفي حقوقهُ ويهدينا الى محبة البهاء الغير المتناهي

المخلص لك

الاب خليل اده اليسوعي

مطبوعات شرقية جديدة

Le sentiment religieux dans l'antiquité, par A. Dufieux, Paris, Lethielleux, in-8°.

الشاعرة الدينية في الاعصار القديمة

ان غاية المؤلف حرّية بالثناء فانهُ اراد ان يثبت ان الشاعرة الدينيّة هي غريزيّة وانّ تاريخها في الاجيال الاولى يبرهن على صحّة الدين المسيحي . وقد قسم تأليفهُ الى